عالم .. ولكنه كئيب !

قصة بقلم علي بدور

اخذت الحياة تضج في غرف المنزل منذ الساعة الثانية عشرة ظهرا عندما اعدت نوال قطع الكاتو والحلوى والفواكه وهيأت طاولة الطعام فرتبت عليها فناجين الشاي والصحون الفارغة ونثرت فوقها بعض شرائط الورق الملون وعلقت بالمصابيح الكهربائية عدة بالونات منفوخة حتى يحزر المرء ان حفلة لعيد الميلاد سوف تقام مساء هذا اليوم .

انها المرة الاولى التي تحتفل فيها نوال بعيد ميلادها بعد أن رأت صديقات العائلة يحتفلن بعيدهن ، ووجدت المشجع في عمها الذي تحمس لفكرتها وكذلك صديقات العائلة اللاتي رحبن بحماسة لا يشوبها شيء وابدين استعدادهن للحضور ولكن شريطة ان توجه لهن الدعوة .

ان نوال منذ ايام كانت تعد العدة لهذا اليوم .. فقد اوصت بائع الكاتو على عدة قطع .. وقالت له وهي تختم حديثها معه :

ـ اريدها من الكاتو الجيدة.. انها لحفلة عيد ميلادي !

وضحك البائع ضحكة خفيفة كانت تعبيرا عن سعادته بمولد هذه الفتاة التي تدخل محلة لاول مرة .

وتابعت نوال اهتمامها بحفلة عيدها . فهي بعد ان هيأت كل شيء لم تنس ان تذهب الى الحلاق لترتب شعرها لاعتقادها ان عيد الميلاد ، عيد للاناقة والزينة . وهي لن تتأخر عن الاحتفال بعيد ميلادها وقد اكتملت اناقتها وزينتها . وكانت نوال قد حدثت عمها فابتسم لها وهو يحدق فيها ؟؟ انه احبها ورعاها بعد وفاة ابيها ، وسره كثيرا ان تفكر نوال باعداد مثل هذه الحفلة في مثل هذا اليوم عله ينسى وقع غياب زوجته وابنته معا في بيروت . ولكنه لم يتأخر عن تشجيعها فقد مدها ببعض المال لتسد نفقات الحفلة الضرورية .

كانت نوال تترنم باغنية عذبة وهي تدخل احدى الغرف وتخرج منها لتدخل غرفة اخرى بالسرعة نفسها . انها وحدها ويجب ان تعد كل شيء حتى المساء لتستطيع ان تستقبل ضيوفها ، وقد انهت ما عليها من واجبات . وكانت اذا تعبت وقفت عند غرفة الطعام وتأملت بشغف قطع الكاتو والفواكه والحلوى والشرائط الملونة والبالونات ، واغمضت عينيها لتتخيل صديقات العائلة حول الطاولة يصخبن ويضحكن وهن يهنئنها بالعيد السعيد .. ثم كانت لا تلبث ان تصحو من احلامها لتفكر في عدد المدعوات وتسأل نفسها كثيرا ، لعلها سهت عن دعوة احداهن ولكنها تعود ثانية لتؤكد ان كل صديقات العائلة مدعوات هذه الليلة .

ان نوال لا تذكر متى ولدت ، كل ما تعرفه انها ذات خمس عشرة سنة . هكذا يقول عمها كلما وجهت له سؤالا يتعلق بمولدها وعمرها .. وهي عندما احرجته منذ شهر مضى وسألته عن اليوم الذي ولدت فيه اجابها بضحكة معبرة وهو يبدي لها مسرته :

ـ لقد ولدت منذ خمسة عشر عاما .. وبعد شهر كامل من هذا اليوم !

فردت عليه وهي تعبر عن سعادتها بما سوف تقوله له :

ـ اذن سيكون لي عيد ميلاد كما لسعاد عيد ميلادها كل عام !

ونظر عمها الى زوجته وكأنها فهمت كل شيء وتابع حديثه مع نوال:

ـ طبعا يا نوال .. سيكون لك عيد ميلاد وسنحتفل به جميعا..

وكانت نوال تفضل لو كانت زوجة عمها وابنتها سعاد في حلب وليستا في بيروت لتحضرا الحفلة .. ولكن ماذا تصنع وتاريخ الميلاد لا يمكن ان تلعب به لانه اكثر التواريخ صدقا في حياة الانسان ؟. وفكرت نوال قليلا وهي واقفة ترقب غرفة الطعام : ما ذا لو كان ابوها حيا ليحضر حفلتها .. انها لم تعرفه .. لقد توفي في الحرب فحضنها عمها هي وامها .. ثم لم تلبث والدتها ان توفيت ولم يبق سواها من العائلة الصغيرة على قيد الحياة .. ولاول مرة في حياة نوال تشعر بحاجتها الى اب يحضنها في ليلة ميلادها ويغمرها بقبلاته الحانية .. انها منذ اعوام تحاول ان تقيم مثل هذه الحفلة ولكن عمها يأبى عليها ان يذكر لها يوم ميلادها ويحدثها باسلوب لا تستطيع ان تفسر معه سبب سلوكه الذي لم تفهمه على حقيقته .. اذ ماذا تؤثر حفلة من الحفلات .. بينا زوجته وابنته تقيمان حفلات كثيرة ، واكثرها ليس له مناسبة خاصة كحفلتها التي تقيمها اليوم ؟ اير يدها اذن ان تظل حزينة لذكرى والدها ؟ ولكنها وفية لذكراه مخلصة له دون ان تراه او تحدثه او تسمع صوته .. انها تؤمن ان الافراح النابعة من النفس تذكرنا باحبائنا الراحلين .. لان الفرح العميق يصور لنا الحياة بكل ما فيها ويرسم في مرآتها الصافية كل ما في الماضي والحاضر من ابتسامات وعبرات .. وابتسمت نوال عندما وصلت في تفكيرها الى موافقة عمها على اقامة هذه الحفلة بل وكيف شجعها عليها وهيأ لها اسباب نجاحها .

هرعت نوال وهي لا تزال غارقة في الافكار والعواطف القلقة تفتح الباب بعد ان سمعت رنين جرسه .. انه عمها قد عاد من عمله ..ودفنت لتوها رأسها في صدره وغمرته بقبلاتها ودموعها .. لقد تجسدت لها في عمها روح والدها .. ذلك الاب مات دون ان يراها او تراه .. فاحست ببعض الراحة لما وجدته في عمها من امان لنفسها وطمأنينة لروحها .

وقف عمها يتأمل طاولة الطعام وقد بسطت نوال فوقها ما هيأته لحفلة المساء وخطر في ذهنه اشياء كثيرة .. ولكنه لم يفصح عنها .. احب ان تبقى في صدره الى الابد .. فلا تظهر مع ابتساماته او كلماته .. او حتى اشاراته .. ان نوال تعد نفسها اليوم لدفقة من السعادة وما عليه الا ان يشاركها هذه السعادة الدافقة .

كان النهار يتوارى عن المدينة والشمس توشك ان تغرب ، وريح شمالية تصفر صفيرا عاليا كلما داعبت رؤوس الاشجار واسلاك الكهرباء واعمدة النور . وكانت غيوم كثيفة تغز الجري مسرعة من جانب الى جانب في الافق ، ونوال ترقب ذلك كله من النافذة وهي تدير قرص الهاتف مذكرة صديقات العائلة بحفلة اليوم .. وكانت تتجاوب معهن فتضحك لضحكهن ومزاحهن ، وتأبى ان تذكر لهن ما اعدته من مفاجآت في هذه الحفلة التي سعت جهدها ان تكون حفلة ناجحة !

اضيئت الانوار في المنزل ، واوقدت المدافىء فاحست الغرف بشيء من الدفء كأن كلمة مقدسة سرت موسيقاها الروحية في الاوصال والافئدة وشعت وهجا ونورا في الاعين والوجنات . وبينا الغرف صامتة ساكنة كانت غرفة الطعام تترقب ضجة وحبورا وانطفاء شموع .

اخذت نوال تكثر من التطلع الى الشارع ترقب المدعوات وتنتظر في لهفة وشوق اطلالة اولادهن .. لقد اخذت تحس بحاجتها ولو الى انسانة واحدة تتحدث واياها فتقص عليها كيف اعدت اسباب النجاح لهذه الحفلة الاولى في حياتها ، علها تحس انها تولد من جديد وتمضي في الزمن بعيدا .. ولكنها في عيد مولدها توشك ان تولد من جديد وقد احست حتى اعماق النفس ببهجة العيش والحياة الى جانب عمها وعائلته تبادل الاخرين حبا بحب واخلاصا فوق اخلاصهم الذي به يتوددون .

كان الشارع خاليا الا من اضواء اعمدة النور المتقابلة كانها في معبد جلس كهنته متقابلين تطرف اعينهم وتتحرك شفاههم بالتراتيل ولكن بلا ضجة ولا صخب .. ولاول مرة في حياة نوال ، تحس بشيء من الخوف يسري في اوصالها كانه جرعة السم .. لقد خافت من ان لا يحضر احد من صديقات العائلة حفلتها هذه .. ولكنها رغم خوفها الذي غطى على زينتها وابتسامتها المفرطة في السعادة كانت تحس حتى اعماقها احساسا مفرطا بالبهجة والتفاؤل .. وزادها بهجة وتفاؤلا ان الامطار اخذت تهطل .. ولا تلبث السماء ان تفرغ مما في عيونها من دموع لتتالق بضياء النجوم من جديد .. ولم تخش نوال ان يطول تهطال الامطار لان امطار الربيع قصيرة الروح مقطعة الانفاس .. ولكنها رغم ذلك فان صوت الامطار على اسفلت الشارع كان يؤثر في نفسها مثل ما يؤثره في نفس الانسان دبيب طبول خفيفة تنقله الريح من بعيد فتحدث خشية ثقيلة على روح الانسان الذي يشعر بالوحدة والانفراد !

الهاتف صامت لا يرن . لم تسأل عنها واحدة . ولم تعتذر واحدة عن عدم الحضور . الطريق لا تزال خالية . وغرفة الطعام صامتة تحس بثقل العيد الذي لم يولد بعد ولكنها لا تحسن التعبير عن هذه المشاعر الانسانية التي كانت تتصارع في نفس نوال ولكن الغرفة رغم صمتها فانها تنتظر ولا شك من يبعث فيها الضجر والحبور .. او ليس اليوم ذكرى مولد انسانة على الارض بلا ذنوب ولا خطايا .. نعم ! ولكن اين المدعوات اذن ؟ لعلهن ينتظرن تولي الامطار الهاطلة ؟ ولكن لماذا لا يهتفن مباركات ويعتذرن عن التاخير .. قطعا انهن لن يتاخرن كثيرا .. ان نوال تذكر انهن كن يتاخرن قليلا ابان دعوتهن لحفلة زوجة عمها او ابنتها .. وهن الان ايضا سوف يتاخرن قليلا .. لعل ذلك من اصول الحياة الاجتماعية الراقية !

الساعة تدق الثامنة دون ان يحضر احد . وكذلك لم يعتذر احد بالهاتف . ان العاصفة الربيعية قد هدأت ، والغيوم ولت عن المدينة ونجوما مشرقة بالضياء تلمع في السماء وريحا خافتة الصوت تحرك رؤوس الاشجار ، والطقس اضحى لطيفا رغم بعض البرودة ، مما يغري الانسان بالخروج من منزله لاستنشاق رائحة الطبيعة التي تشبه رائحة حسناء خرجت من حمام منعش .. وتساءلت نوال لماذا لم يحضر احد بعد .. وتذكرت بغصة لعل المقصود من عدم الحضور ، غياب زوجة عمها وابنتها سعاد في بيروت ، وبقاؤها وحدها مع عمها في المنزل .. ولاول مرة اعترى نوال قلق حقيقي وتساءلت فيما بينها وبين نفسها قائلة:

– ترى ألن يحضر احد منهن ؟

واسرعت الى عمها تستشيره .. فاستقبلها وهو يقرأ في كتاب بين يديه ولكنه توقف عن القراءة واستمع اليها :

– ما تقول يا عماه .. هل اخابرهن ثانية مذكرة ام انتظر دقائق اخرى ؟

ارتسمت على وجه العم صورة للالم الدفين ينقصها اطار من الشجاعة لتعبر عن مدلولها في نفس نوال .. واطرق قليلا ثم رفع راسه فبانت في وجهه عينان انطفأ فيهما بريق الامل وقال لها :

– اسمعي يا نوال .. قبل كل شيء اريد ان اهنئك بعيد ميلادك يا فتاتي .. تعالي الى جانبي .. اجلسي هنا بقربي (واحاطها بذراعه حانيا) هل قلت لهن عن موعد الحفلة ؟ لعلك قلت بالطبع .. واتصلت بهن واحدة فواحدة بالهاتف مذكرة بعدم التخلف . ولا يجمل بك الان يا فتاتي ان تحدثيهن ثانية .. لقد قمت بواجبك حيالهن ، وبقي عليهن ان يقمن بواجبهن حيالك .. ان السعادة لا يزرعها الانسان في قلب الانسان اذا لم يكن في القلب التربة الطيبة التي تجعل المحبة تنمو فيها وتكبر..

فردت عليه نوال بانفعال يوشك ان يتطور الى نشيج مخنوق :

– ولكن عيد الميلاد يا عماه لا يغدو عيدا الا بالاخرين.. انني لا اجد واحدة من صديقات العائلة لاحتفل بالعيد معها .. ان طاولة الطعام غدت زاهية بما حملته والشاي ينتظر ان اسقطه في الماء المغلي ليصب في الفناجين . والاسطوانا تصامتة في البيك اب ترقب الفرصة لتدور وهي تغني .. وهديتك لي لا يحجبني عن رؤيتها سوى غلاف من الورق وشريط حريري .. وانا اكتم ابتساماتي وضحكاتي وشعوري بالسعادة، لاجعل الصديقات يشعرن بسعادتي وهنائي .. انوجودك هو عيد دائم لي .. ولكني كنت اريد ان افرح كما تفرح اية فتاة في هذا العالم بعيد ميلادها ..

لبث العم صامتا لا يجيب . ماذا يقول لها ؟ انه لا يدري شيئا . ان الساعة هي الثامنة والنصف لقد مضى على موعد الحفلة ساعة واكثر دون ان تحضر واحدة ، ومن دون ان تعتذر عن عدم الحضور واحدة.. قطعا لن يحضر احد .. انه يعرف السبب .. انه السبب الوحيد الذي منع المدعوات من تلبية دعوة نوال لحضور الحفلة .. انه ليس غياب زوجته وابنته فحسب .. ولكن هناك السبب الاخر الذي يعرفه الجميع ما عدا نوال .. واستجمع العم اطراف شجاعته وقال لها :

– لماذا لا نبدأ معا الاحتفال بعيد ميلادك يا فتاتي .. لنقم الى غرفة الطعام فاقدم لك هديتي المتواضعة واطفيء معك كعكة الشموع واشرب شايك المفضل بينما الموسيقى تصدح لك في العيد السعيد ...

وقام العم الى غرفة الطعام تتبعه نوال .. ووقف عند زاوية الطاولة يطفيء الشموع معها ... وبينما الموسيقى تصدح من البيك اب ، والشاي الساخن في الفنجان ينتظر ، عاود العم شعور بالالم لتغيب المدعوات وعاوده التفكير في السبب .. انه السبب الوحيد الذي منعهن عن الحضور .. إنه سبب يعرفه الجميع ما عدا نوال .. ولكن اذا كانت نوال خلفتها الحرب مجهولة الاب والام فهل ينبغي لها ان تعيش دون اية حفلة تقام بمناسبة عيد ميلادها ؟ وفكر .. لعل صديقات العائلة يأتفن من حضور حفلة تقيمها فتاة دونهن حسبا ونسبا وتواريخ ميلاد صحيحة في السجلات قد تدل على ام واب ولكن بالنسبة للسجلات فحسب ؟ ولكنه غرق في اساه ثانية ولم يستطع ان يفكر في شيء.. اذ انه لم يكمل افكاره فيما بينه وبين نفسه .. لقد صرفته عن ذلك دموع صامتة كانت تنهمر في فنجان شاي نوال ، وهي تحاول ان تبتسم له من خلال دموعها ، والموسيقى تصدح ..

حلب — علي بدور

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب – بيروت